الدراسات العربية والإسلامية بالجامعات الأسبانية

إن ظهور جيل جديد كبير من المستعربين بنهاية الستينات، نتيجة للتحول الكمي في الجامعات الأسبانية وضع نهاية لعزلة الاستعراب في أسبانيا، ففي تلك الحقبة، ركزت ثلاث مؤسسات تعليمية لها القدح المعلى والتقليد الكثر رسوخا في تطوير الدراسات العربية وهي جامعة كومبلوتنس بمدريد وجامعة غرناطة، على دراسات العصور الوسطى وفقه اللغة التاريخي، بالإضافة إلى جامعة برشلونة الوسطى التي تخصصت في دراسات العلوم العربية . وفي عام (١٩٩٠) صدرت أول مجلة تعني بالدراسات العربية (متضمنة المواضيع الأندلسية أو العصور الحديثة للدراسات العربية)، وكذلك المجلة الأكثر قدما (Miscelánea) والتي تتناول مواضيع متعددة في الدراسات العربية والعبرية (MEAH) التي يصدرها قسم اللغات السامية في جامعة غرناطة منذ عام (١٩٥٢ م).

إن وصول العديد من الطلاب، الذين أخذوا سابقا دورات في اللغة العربية، قد جعل لزاما على المستعربين الحاليين فتح مجالات جديدة في الدراسات لمقابلة الطلب الأكاديمي. وقد تم إنشاء مركز جديد في عام (١٩٦٨): الجامعة المستقلة في مدريد، وهي أول جامعة تقدم مناهج دراسية حول العالم العربي المعاصر، كما أنها دلفت كذلك إلى الأدب العربي الحديث ودراسات العلوم الاجتماعية، على التوالي . ولا مراء في كون

هذه المستجدات، مقرونة بدخول جامعة سرقسطة وأشبيلية إلى مجال الدراسات العربية، سوف تعزز الاستعراب في أسبانيا، كما أن الطلب المتنامي سوف يذهب بالدراسات العربية إلى مناطق كانت تفتقر إلى تقاليد الاستعراب مثل جامعات أليكانتي ومالقة وألمرية وجيان وقادس وسيوداد ريال.

في الوقت الحالي، هنالك عدد كبير من الجامعات التي تقدم تخصصات في الدراسات العربية بأقسامها أو مجالات الدراسات فيها، مثلا قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة مدريد، والتي تركز أقسامها علي الدراسات العربية في القرون الوسطى والمعاصرة، وجامعة غرناطة، وجامعة برشلونة. ونضيف مجالات الدراسات العربية والإسلامية في كل من: جامعة جيان، وجامعة أليكانتي التي أصدرت مجلة شرق الأندلس عام (١٩٨٤) من قبل الأستاذين ميكيا دي ايبالاثاو وماريا خيسوس روبيرا، وجامعة مرسية، وجامعة مالقة، وجامعة قرطبة ومجلتها الشهيرة قرطبة التي صدرت عام (١٩٩٦) والتي تتناول المواضيع الأندلسية، وجامعة قادس ومجلتها (الأندلس- المغرب) المتخصصة بالمواضيع الأندلسية والمغربية التي تصدر منذ عام (١٩٩١)، وجامعة أشبيلية، وجامعة سلمنقة، وجامعة ألمرية، وجامعة أوفييدو، وجامعة اللغات في جزر الكناري.

المراكز والهيئات

ظهرت على مر العقود الماضية عدة مراكز وهيئات متخصصة بالتعليم والدراسات العربية والإسلامية. وهذه المؤسسات مسؤولة عن الإبقاء على الدراسات العربية والإسلامية حية في أسبانيا من خلال تنظيم المؤتمرات والندوات، وورش العمل والموائد المستديرة والمعارض، والحفلات الموسيقية والمنح البحثية، وعرض الأعمال السينمائية والمسرحية العربية، بالإضافة إلى الأنشطة الأخرى. ومن أبرزها:

المعهد المصري بمدريد الذي يعتبر من أهم وأقدم المعاهد المتخصصة بالدراسات الإسلامية، وهو ذو علاقة لصيقة بالعالم العربي. وقد تم تأسيسه في عام (١٩٥٠) من قبل المفكر الكبير طه حسين

المعهد الأسباني- العربي للثقافة، على الرغم من أنه بات يعرف باسم آخر، وهو المعهد الذي تم افتتاحه عام (١٩٥٤)م تحت رعاية المجلس الأسباني للعلاقات الثقافية وتم اعتماده من وزارة الخارجية الأسبانية ووزارة التعليم. والرسالة الرئيسية لهذا المعهد، حسب القانون المؤقت الذي شكل الأساس لأنشطته، هي: ربط العالم الثقافي الأسباني بالعالم الثقافي العربي من خلال تطوير وتشجيع التعاون اللصيق بين الثقافتين

شهد عام ١٩٣٢ ظهور إحدى المؤسسات البحثية ذات الدلالة الرمزية الكبرى، وتمثلت في مدرستي الدراسات العربية في مدريد وغرناطة، تحت إدارة كل من آسين

بالاسيوس وجارسيا جوميس على التوالي. وعلى الرغم من أن هاتين المدرستين أنشئتا لخدمة الغرض العام المتمثل في «حماية وترويج الدراسات العربية في غرناطة» فقد تم تخصيص مهمة محددة لكل منهما، حيث أوكلت إلى مدرسة مدريد مهمة توجيه وإدارة وتطوير البحث العلمي في تاريخ المسلمين وحضارتهم وحياتهم، بينما اختصت مدرسة غرناطة بالتدريس المتميز للغة العربية والحضارة العربية واللغة العبرية والعبرية المتأخرة (عبرية الأحبار والحاخامات) فضلا عن استقطاب الشباب المسلم وتحفيزهم على الدراسة والبحث.

وقد تم إدراج تخصصات من قبيل التاريخ والقانون الإسلامي والمؤسسات الإسلامية وعلم الآثار، والآداب والفنون ودراسة اللهجات والموضوعات المغاربية، ضمن تلك المهام والمسؤوليات. وتم نشر حصيلة هذا النشاط العلمي المتنوع والمتعدد الجوانب في مجلة خاصة أطلق عليها مسمى الأندلس (١٩٣٣-١٩٦٣) وكان يشرف عليها ميغيل آسين و إميليو غارثيا غومس . وبعد أن توقفت هذه المجلة عام ١٩٦٨ ظهرت مجلة جديدة "القنطرة"، رديفة لها، وكانت تتناول نفس المواضيع وتركز على الإسلام الكلاسيكي في الأندلس خلال القرن السابع عشر .

ولا مراء في أن إحدى المؤسسات المشهورة عالميا والتي تعد الأفضل تمثيلا للمشهد في الدراسات الأندلسية هي المؤسسة العامة للتراث الأندلسي التي تم إنشاؤها في عام (١٩٩٥) تحت رعاية العديد من الوزارات على مستوى الإقليم والدولة

وكما هو واضح من اسمها فهي تركز في المقام الأول على نشر الثقافة الأندلسية من خلال نشر آدابها وآثارها الثقافية ودراسة العلاقات التاريخية والاجتماعية بين أسبانيا والعالم العربي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط وأمريكا اللاتينية/ الأسبانية.

وفي هذا السياق فإن أسبانيا بوصفها وحدة تمثل الجسر أو حلقة الوصل بين الغرب والشرق تسعى إلى أن تتبادل إرثها الإسلامي مع تلك الدول التي تشترك معها في نفس الماضي بشكل عام. إن الفعاليات التي نظمتها جمعية التراث الأندلسي، مثل المعارض ذات المواضيع والمضامين المحددة والمؤتمرات والقدر المعتبر من العمل التحريري والنشاط التأليفي ونحو ذلك، إنما تأتي متناغمة مع نبض السياحة الريفية وإيقاع الفنون التقليدية وتجد لها أصداء في ذلك من خلال إيجاد المسارات والمسالك المتشعبة وتهيئتها على الوجه المطلوب، فضلا عن توفير الحماية والصيانة والإصلاح للموروث الإسلامي الأسباني والحفاظ على زخمه.

أما الجمعية الأسبانية للدراسات العربية فهي أكبر مؤسسة موجودة حاليا في أسبانيا على المستوى الوطني. وأنشئت هذه الجمعية عام (١٩٩٣م) من قبل العاملين الناشطين والقدامى المتقاعدين من المهتمين بالشأن الاستعرابي بالبلاد. وهي تعد المؤسسة الأكثر تمثيلا لشتى ألوان الطيف الاستعرابي الأسباني. فهي بمنزلة اللوحة التي يتجلى فيها جمال تلك الألوان، ولاسيما أنها تضم أعضاء من جميع شعب الدراسات العربية والإسلامية بجميع الجامعات الأسبانية.

وتنطوي الأهداف الرئيسية لتلك الجمعية على التطوير والنشر والترويج للدراسات العربية في أسبانيا، ونسج شبكة معلومات متخصصة ومنسقة بين أعضائها لتصبح بمنزلة المنبر أو الحفل الأكثر فعالية، والتواصل بين هؤلاء الأعضاء، وبلورة المبادرات للشباب المهتمين بشأن الاستعراب، بما في ذلك تخصيص جائزة سنوية للباحثين العاملين الجدد في حقل الدراسات العربية.

أما مؤسسة ابن طفيل للدراسات العربية، فهي ترتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الأندلس وثقافتها. وتتخذ هذه المؤسسة من ألمرية مقرا لها، وقد استلهمت فكرتها من القامة الفكرية السامقة : ابن طفيل الفيلسوف الأندلسي (توفي عام ١١٨٥م). وأنشئ هذا المركز على يد عدد من أساتذة الدراسات العربية من مختلف الجامعات الأسبانية عام ٢٠٠٣، وذلك بهدف نشر الوعي بالإرث المعرفي الأندلسي. ويعتبر المركز مقرا فريدا ومتميزا وملتقى بين الحضارات العربية والإسلامية والغربية.

وعلى الرغم من أن هذه المؤسسة درجت على تنظيم بعض الفعاليات بصورة دورية، فإن تركيزها الرئيسي كان منصبا على نشاط الطباعة والنشر، ومنذ إنشائها ظلت المؤسسة تركز على مشروع جماعي ضخم يطلق عليه مسمى "مكتبة الأندلس"، وهو يحتوي على تشكيلة من سبع مجلدات من الترجمات والسير لجميع الكتاب والمؤلفين الأندلسيين من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر. وقد بذلت جهودا مضنية في استخراجها من المصادر العربية الأصلية وتنقيحها من قبل أسبان و أجانب مهتمين بالشأن الاستعرابي .

ويأتي هذا العمل القيم متسقا مع مشروع أكبر منه تحت مسمى "موسوعة الثقافة الأندلسية"، يهتم أيضا بأعباء نشر الأعمال الأخرى عن التاريخ والثقافة العربية والأندلسية.

وفي غرناطة أنشئت مدرسة الحمراء في قلب قصر الحمراء وجنة العريف، والتي تعتبر من المراكز البحثية المتقدمة. والهدف الرئيسي لهذه المدرسة هو دعم ونشر المعرفة للإرث التاريخي للعصر النصري بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. وتضم هذه المدرسة العديد من الأكاديميين والمتخصصين في مجالات العمارة والفن الإسلامي والترميم والحدائق والأوجه الثقافية الأخرى، وتنظيم البرامج التعليمية لدراسة الماجستير وورش العمل وإقامة الندوات والمؤتمرات والمحاضرات، بالإضافة إلى مختبرات البحث والمنح الدراسية والجوائز التي تعمل على تشجيع البحث العلمي.

لقد كان أكبر دافع لإنشاء هذا الفرع من الدراسات في آسبانيا هو ما أملته ضرورة التعرف على جزء كبير من ماضيها الذي لا مراء في أنه كان عربيا وإسلاميا قبل قرون مضت، ولعل هذه الحقيقة هي التي تضفي على الاستعراب الأسباني مبررا للوجود وتعطي المسوغات المتعددة لدراستها لمعربية، وقد تم الترويج لذلك في عدد معتبر من المحافل والمنابر الأكاديمية وغير الأكاديمية التي أنشئت منذ ستينات القرن الماضي لاستطلاع آفاق الأندلس والعالم العربي في القرون الوسطى، واستكشاف مكوناته وتحليل العالم العربي الإسلامي القديم والمعاصر من منظور متميز.

وعلى الرغم من أن قبول الأندلس بوصفها جزءا من الكل التاريخي لأسبانيا لا يزال مدار تساؤل ومثار شك من قبل بعض القطاعات، فإن الدور الذي اضطلع به الاستعراب قد أسهم بقدر كبير في تعزيز وجود هذه الحقبة التاريخية المهمة في الذاكرة الجمعية الأسبانية